جامعة حلوان
كلية التربية الفنية

الرسم الملون المشترك
منهج للعلاج بالفن فى علاقة الأم بالطفل
Painting Together: an art Therapy approach to mother-infant relationships

بحث إعداد

أ.د / مصطفي محمد عبد العزيز
أستاذ علم النفس ، ومادة تحليل التعبير الفنى لفنون الأطفال والبالغين (المتفرغ)
كلية التربية الفنية – جامعة حلوان

أ .د / عفاف أحمد محمد فراج
أستاذ علم نفس التربية الفنية (المتفرغ)
كلية التربية الفنية
جامعة حلوان

يناير ٢٠٢٠

"الرسم الملون المشترك"
منهج للعلاج بالفن في علاقة الأم بالطفل

أ.د / مصطفي محمد عبد العزيز
أستاذ علم النفس ، ومادة تحليل التعبير الفنى لفنون الأطفال والبالغين (المتفرغ)
كلية التربية الفنية – جامعة حلوان

أ .د / عفاف أحمد محمد فراج
أستاذ علم نفس التربية الفنية (المتفرغ)
كلية التربية الفنية
جامعة حلوان

مقدمة :

يتحدث هذا البحث عن جهود Penelope Hall بالنسبة لجماعات العلاج بالفن للأمهات والأطفال. إنه معضلة شخصية لإحدى طرق العمل التي بُنيت على مدار سنوات عديدة. لقد نشأ الاهتمام بهذا المجال كجزء من السنوات الأولى من العمل في مجال خدمات الصحة العقلية للأطفال والمراهقين CAMHS في مراكز الأسرة والطفل. إن أغلب خبرات العاملين فى هذا المجال كانت مع مجموعات متخصصة تهدف إلى التعامل مع حالة اكتئاب ما بعد الولادة برعاية وتمويل "شور ستارت Surestart" وهو مشروع بتمويل حكومي بلندن يهدف إلى تحسين الخدمات العامة للأسر التي لديها أطفال.

في هذه الجماعات يقضي الأمهات والأطفال وقتاً مع بعضهما البعض يستخدمون فيه المواد الفنية البسيطة ويقومون بالتلوين معاً في أعمال مشتركة بالإضافة إلى أنهم يلعبون مع بعضهم البعض أيضاً. ومحور هذا العمل هو علاقة الأم بالطفل. وبمرور السنوات ، تنشأ الجماعات مع سياقات مُتغيرة. ومع ذلك كان مُثيراً أن ندرك أن القاعدة النظرية لفاعلية هذه الطريقة العملية قد تأكدت من خلال التطورات في النتائج البحثية حول النمو المبكر الأول للطفل. تلك النتائج التي أكدتها حديثاً الأدلة من البحوث في علوم الأمراض العصبية.

فى هذا البحث تعرض الباحثة Penelope Hall بدايات إهتمامها بجماعات " الأم – الطفل " في الرسم . والهدف من بناء جماعة من هذا النوع وهو تحسين العلاقة بين الأم والطفل في سياق إكتئاب ما بعد الولادة. فُكل المشاركين في هذه العملية بمن فيهم المنظمين لها. يقومون بالرسم على الأرضية. وينتج عن ذلك إحساس بالمساواة ينعكس فى

تقييم كل الرسومات الناتجة، مهما كانت أعمار المشاركين كلهم. والقاعدة النظرية التى يعتمد عليها عمل الباحثة مؤسسة داخل إطار عمل بفكر جديد حول نمو الطفل وأهمية علاقة الأبوين بالطفل.

والباحثة Penelope : درست النحت وتأهلت علمياً لتصبح معالجة بالفن في كلية St. Albans عام ١٩٨٠ أبدت إهتماماً خاصاً بقضايا الإنتماء والعلاقات في مشروعها البحثي لنيل درجة الماجستير عام ١٩٩١ المبنى على ورش العلاج بالفن للآباء مع أطفالهم الصغار والتى قادتها للعمل في خدمات الصحة العقلية للأطفال والمراهقين CAMHS في النرويج وبلدان أخرى. في السنوات الأخيرة أدارت جماعات للرسم الملون المشترك للأمهات في حالة إكتئاب ما بعد الولادة مع أطفالهن. كما مارست أنشطة خاصة في العلاج بالفن والإشراف في منزلها بالقرب من Bodmin . كما شاركت في دورة مؤسسة Truro للعلاج بالفن ولسنوات طويلة كانت عضوة لجنة فى دورة صيفية لمؤسسة Champernowne Trust للفنون والعلاج النفسى بمناهج Jung .

أولاً : الأمهات والأطفال والمواد الفنية

Mothers, children and materials :

إن المعالج بالفن يتركز اهتمامه في تأثير المشاركة والاندماج في العملية الابتكارية من خلال استخدام المواد الفنية. في سياق العلاج الأسري بالفن، ويرى كيف يُثار الاهتمام وكيف تقوى العلاقات عندما يشترك الآباء وأعضاء آخرين في الأسرة أو غيرهم من القائمون على الرعاية مع الأطفال في أعمال ابتكارية مشتركة. وذلك يمثل ايضا خبرة المعالج مع جماعات الرسم والتلوين التي تشارك فيها الأمهات مع أطفالهن في مرحلة تعلم المشي وحتى الأطفال الرُضع. وربما يكون هناك اقتراح بأن الأسباب في ذلك مُحتمل أنها تعود إلى تاريخنا الأول عندما كانت صناعة العلامات هي سمة المجتمع الإنساني منذ نشأته. فالكثير منا يُلاحظ مدى السرور الذي يكون عليه الأطفال حال

تعرفهم على واستكشافهم لخواص المواد المختلفة المحيطة بهم في البيئة التي يعيشون فيها.

فمنذ الطفولة المبكرة يكون استكشاف المواد والتذوق والتأثيرات اللونية والتخطيطات بصفة عامة من الأشياء التي تجلب المتعة، وأن فرصة إنكارها يؤدي إلى نتيجة غير مرغوب فيها. فعملية صناعة العلامات والصور تصبح أكثر إثارة ويزيد اندماج الطفل معها مع نموه.

إن العمل بالفن من الأنشطة التي يستمتع بها كثير من البالغين والأطفال، وهي من الأنشطة الطبيعية بالنسبة لهم. يُضاف بُعد آخر إلى هذا النشاط عندما يحدث هذا النشاط داخل سياق العلاقة الأولى ويشترك فيه كل من الأم والطفل معاً. وهناك دلائل على أن الأطفال الصغار يملكون قدرة فطرية للارتباط بمن يقوم على رعايتهم، خاصةً في شهور أعمارهم الأولى. ويُلاحظ كل من Trevarthen عام ١٩٨١ وآخرون و Murray عام ٢٠٠٥ أنه عند العمل مع الأمهات والأطفال الرُضع. يمكن أن تعتمد على أن هناك شريك نشيط في هذا العمل يتمثل في هذا الطفل الرضيع.

والآن يتضح جلياً أن الانتماء الدافئ والآمن إلى الأم أو إلى الراعي الأول إنما يمثل دلالة على الاحتمال للاستقرار والسكينة يتولدان في شخصية هذا الطفل عندما يصبح شخص بالغ. فإذا كانت هذه هي الحالة فإن المتضمنات تصل إلى ما وراء الفرد لتكون تأثيرية في رفاهية الأسرة ككل. وبامتداد هذه النظرة يصل مدى تأثيرها إلى المجتمع المحلي ثم المجتمع الأكبر. وتشرح لنا Fraiberg في عام ١٩٨٠ كيف أنها اتخذت قرار للعمل مع الأمهات والأطفال الذين يحتاجون بشدة إلى المساعدة النفسية بما يُطلق عليه "العلاج النفسي في المطبخ" (Psychotherapy in The Kitchen)، وكتبت قائلة أنه لا يوجد طفل رضيع يمكنه انتظار حل مشكلة نفسية أبوية تعوق نموه الطبيعي. مثل هذه المدركات الواقعية أضافت الإسراع في هذا العمل لأن الطفل الرضيع والطفل الذي يتعلم المشي، يقضيان فترة عمرية قصيرة جداً، وفقدان الفرص من الممكن أن يُسبب لهما إحباط في أجيالهما التالية.

منذ البداية الأولى لاحظ المعالجون أن الأطفال يهتمون لا إرادياً المشاركة مع أمهاتهم في جماعات الرسم وأن الأمهات يتجاوبن مع مثل هذا الاهتمام. ورأيت كيف أن عمل الصور ومشاهدتها ممكن أن يُدعم معنى الهوية والانتماء لدى كل من الأم والطفل. فعمل صورة ومعرفة أنها "ملكي أنا" والإعلان عن "أنا الذي صنعت ذلك" هي مزاعم مُحببة ومُفضلة للأطفال الصغار، وفي نفس الوقت فإن تولي المسئولية تدريجياً عن "ملكي" أو "ملك أمي" أو "صورتنا نحن". أيضاً يحمل ذلك رسالة قوية. فالتعبير المباشر عن الأحاسيس ممكن إدراكه من خلال كل من المحتوى وطريقة التنفيذ للعمل الفني، وهذا ممكن أن يساعد الأم والطفل في معرفة وفهم بعضهما البعض بشكل أفضل. فالصور ممكن أن ترعى ذكريات الأنشطة والاحتفاظ بها ذاكرة لها. فإنتاج الصورة في عمل مشترك تُشعر المشاركين بالمساواة، وقد لوحظ أنه حتى الأطفال الصغار جداً ممكن أن ينتجوا صوراً بارزة مثل البالغين. إن الصور البصرية تصنع التأثير حتى وإن لم يتم التحدث عنها وحتى إن كان التعبير الناتج من الصعب التحدث عنه بالكلمات. فالأمهات والأطفال في لعبهم مع بعضهم البعض بالمواد الفنية إنما هم بذلك يمارسون التوافق ويكتشفون طرق مختلفة للعلاقة الارتباطية فيما بينهم. فالمشاركة في مثل هذه الأنشطة في بيئة لا تضغط عليهم بمتطلبات تُفرض عليهم إنما تعطيهم الفرصة للتعرف على بعضهم البعض بطرق جديدة مختلفة.

في ظروف معينة تكون المشاركة المتبادلة في الاهتمامات والتفاعل الصدوق بين الأم والطفل، تحتاج إلى تشجيع خاص في البداية إذا كان الوقت الذي أحاط بميلاد الطفل كان صعباً بصفة خاصة لسبب من الأسباب أو أكثر. على سبيل المثال. في حالة اكتئاب ما بعد الولادة، ربما لا تتمكن الأم من الحضور الكامل بالنسبة لطفلها. ومن المهم ملاحظة أنه في أنشطة العلاج بالفن بالنسبة للأمهات وأطفالهن أنه سيكون هناك قدر من الاتصال المادي بينهم. فردود فعل الأطفال الصغار نحو المواد تميل لأن تكون مباشرة ومادية ملموسة، وغالباً ما تكون بالجسم كله. والاستجابة الحسية للأم تكون مطلوبة لكي تمنع من سيطرة الخبرة. واختيار اللون ربما يبحث فيه الاثنين معاً في كيفية استخدامه وانتشاره على السطح تحت التلوين. مما يؤدي إلى ابتكار طرق جديدة وغير مألوفة في

استخدامه. وبينما ينمو الطفل فإن نمو قدراته في اللعب الرمزي وصناعة القصة يضيف ثراء إلى هذه الخبرة المشتركة. وممكن إثارة الميل الكلي للعب لدى الأم وإظهاره. لكن من المهم الحفاظ على التوازن لأن المواد الفنية أغلبها ذات طبيعة تركيبية غير ثابتة مما يتطلب استعداد الشخص البالغ الفطن في متابعتها والتحكم فيها جيداً.

ثانياً : تاريخ هذا المنهج: History of This Approach

تُحدثنا Penelope Hall المتخصصة فى هذا المجال بأن بدايتها مع البحث في الجوانب النظرية للعلاج بالفن عندما كانت طالبة في St. Albans عام ١٩٨٠، حيث بدأت البحث في الإمكانيات المتاحة التي يقدمها منهج العلاج بالفن للأمهات وأطفالهن الصغار. وبعد التخرج قررت ومعها إحدى زميلات الدراسة أن تبحث هذا في سنوات حياتها المهنية الأولى، وفي السنوات الخمس التالية للتخرج أقامت هى وزميلاتها عدة أحداث موسمية أطلقوا عليها عنوان "ورش التلوين للأم والطفل" (mother and baby Painting Workshops) والتي فيها الآباء الذين لديهم أطفال تحت سن الخامسة من أُسَر ذات اهتمامات مختلفة، يقضون معاً عطلة نهاية الأسبوع في اللعب واستخدام المواد الفنية. وورش العمل التجريبية الأولى هذه قدمت خبرة تعلم قيمة اعتمدت عليها (Penelope Hall) بعد ذلك وتضيف أن ورش التلوين للأمهات والأطفال الصغار منذ نشأتها مرت بالعديد من المؤثرات وانتقلت إلى سياقات مختلفة، لكن المبادئ الرئيسية لها ظلت كما هي وممكن تلخيصها كالآتي:-

١- كل فرد موجود في ورشة العمل هذه مُتوقع منه أن يرسم – الأمهات وأطفالهن والمنظمين لورشة العمل، جميعهم يشاركون في عملية مشتركة في صناعة الفن. ينبغي على المُعالج بالفن وغيره من المنظمون للعملية الحرص ألا يُظهروا نوعاً ما من السيطرة إن لم يكن هناك خطراً حقيقياً يتطلب سيطرة معينة، وعليهم جميعاً ألا يخبروا الأمهات وأطفالهن ماذا يفعلون، وأن مسئولية الأطفال تقع على أمهاتهن. العمل الفني الناتج يتم تقييمه بصورة عادلة وواحدة للجميع والتعامل معه بجدية واهتمام. وممكن النظر إلى ذلك على أنه أسلوب دلالي يبين الاحترام للجميع من كافة الأعمار ولعالمهم الداخلي.

٢- الاقتناع بأن طريقة العمل هذه ممكن توفيقها مع كل الأسر مهما اختلفت ظروفها حيث أردت Penelope Hall تأسيس طريقة العمل هذه في منشآت خدمات الصحة العقلية للأسرة والطفل أو في منشآت مماثلة. فبالإضافة إلى عملها مع الأفراد والجماعات، أطفال ومراهقين، بدأت استخدام العلاج بالفن في العمل الأسري، خاصة مع الأسر التي لديها أطفال تحت سن الخامسة، وصاحبتها أخصائية نفسية علاجية كانت تقوم بتطوير طرق جديدة للعمل مع الأُسَر فى ذلك الوقت.

٣- إن عملهم معاً شمل العديد من المرجعيات التي تتعلق بالأسر الفوضوية ذات المشكلات المتعددة والتي لها سجلات حضور ضعيفة في مركز الأسرة والطفل. بالنسبة لهذه الأسر، ممكن أن تمثل الرابطة بين الأم والطفل قضية مستقلة في حد ذاتها. وتم إنشاء طريقة للعمل باستخدام المواد الفنية في منازل العملاء، من خلال استخدام تسجيلات فيديو مختصرة للتفاعل بين الآباء والأطفال. والصور الفنية الناتجة أصبحت هي الأدوات للتغير.

ثالثاً : مجموعة "كاتون جروف Catton Grove Painting group" للتلوين:

في عام ١٩٩٣ تمكنت Penelope Hall من إنشاء العمل بالعلاج بالفن مع الأمهات والأطفال الصغار مع زائرة صحية تقابلت معها في دورة دراسية عن العمل العلاجي المجتمعي. كانت هذه الزائرة الصحية تهتم بتقديم طريقة بديلة غير لفظية لبناء علاقة ارتباطية بين الأمهات وأطفالهن من خلال الفن واللعب، في المدينة الفقيرة التي تسكن فيها. عندما التقت اهتماماتهما مع بعضها البعض، وجدت أن معرفة الزائرة الصحية المتخصصة وخبرتها المهنية عملتا على اتساع نطاق عمل جماعة التلوين التي كوناها معاً بقدر كبير. خصصا حجرة علاجية مساحتها كبيرة دعوا فيها الأمهات وأطفالهن أسبوعياً تحت مُسمى "جماعة التلوين" The Painting Group (Hall, 1997) افترشوا الأرض بأغطية من مادة البوليثين Polythene لممارسة نشاط التلوين عليها حتى لا

تتسخ الأرضية. وكل من يشاركوا في الجماعة يحضرون معهم مواد فنية بسيطة. وتبدأ عملية التلوين بعد عرض الأعمال السابقة بفرشها على الأرض ليراها الجميع وتقييمها. في البداية وجدوا أنه من الغريب أن ظاهرة وقت الحوار المشترك والتي كانت مهمة في ورش التلوين الأولى، لم تحدث داخل عيادة الطفل هذه، لكن Hall وزميلتها أدركوا أنه في طبيعة هذه الجماعة المفتوحة أن الصور ذات صفات مشتركة وتحمل هوية الجماعة. ولأن المشاركة كانت مفتوحة للجميع في هذا المجتمع المحلي، فلإسباب الحفاظ على السرية، كان الانكشاف الشخصي مُقيد بالأصدقاء ويحدث على انفراد مع مهنيون مُختارون. وكانت الصور الناتجة تلقى رعاية كبيرة وبعد جفافها تُؤخذ إلى المنزل. وفي بعض الأحيان كانت Hall تلتقط صور فوتوغرافية للصور الناتجة، وتأثراً بتقنيات تفاعل الفيديو، حاولت (Hall) تسجيل لحظات التفاعل الجيد التي تحدث بين الأم والطفل والتي ممكن حفظها كمرجع. كانت نسبة الحضور لجماعة التلوين في عيادة الطفل جيدة، ووُجد أنها جذابة بالنسبة لتلك الأسر التي كانت تقاوم مناهج علاجية أخرى. وكان الاهتمام بالحضور في المواعيد المحددة كبيراً جداً وكان يتم الترحيب بحضور الأعضاء الآخرين – غير أمهات والأطفال – في الأسرة.

استخدمت الباحثة Hosea عامي ٢٠٠٣ و ٢٠٠٦ منهج عرض مشترك في دراستها لعدد ستة أمهات وأطفالهن يشاركوا في رسم وتلوين مشترك. وكانت الأدلة الناتجة عن بحثها هذا– والتي شملت لقطات فيديو للتفاعلات التي تلت الحوارات الشخصية مع الأمهات في عينة بحثها – تُمثل أساس قوي الذي عليه ممكن إجراء مزيد من البحوث. وعندما عملت في مدينة Cornwall. تعاملت مع جمعية "شور ستارت Surestart" المحلية هناك وقدمت اقتراح يتعلق بإنشاء جماعة التلوين في النطاق الذي تخدمه هذه الجمعية. وقوبل هذا الاقتراح بترحاب من الجمعية وفي عام ٢٠٠٢ تم تكوين جماعة للتلوين في بيئة ثالثة.

رابعاً : خلفية نظرية: Theoretical background

إن الخلفية النظرية لهذا العمل تتأسس على الاهتمام بالعلاقة مع الأم على أرض الواقع بالإضافة إلى الاهتمام بجوانب الخيال اللاشعوري unconscious Fantasy والمحتمل ظهوره من خلال صفة الاتصال التي تتمتع بها المواد الفنية واللعب التخيلي imaginative play وقصص الأساطير والخُرافات "Jung 1959, Von Franz 1970" .

بدأ "Winnicott" كطبيب أطفال قبل أن يكون محلل نفسي ، وتركيزه على طبيعة الترابط للعلاقة بين الأم ورضيعها باعتبارها "علاقة من الدرجة الأولى" وباعتبارها علاقة ذات صلة خاصة ، فمع العديد من المعالجين بالفن الآخرين فقد تشاركوا الشعور الخاص بـ " الفراغ المحتمل " أيضا "Winnicott" وزودوا بإطار عمل إبداعي، وعلى الرغم من أن الباحث المذكور كان مهتم بالأصول الشعورية للذات الخاصة بالرضيع إنتقدت اطروحته نظرية التحليل النفسى الخاصة بنمو الطفل من كلاً من Freud. (1912) ، Jung (1959) , Klein (1932), Fordham (1985) .

ولأن (Hall) موضوع البحث الحالى تهتم بأصول معنى الذات لدى الطفل فإن فرضيتها البحثية المقترحة راجعت نظريات التحليل النفسي حول نمو الطفل، مثل نظرية Freud , (1912) ، ونظرية Jung, (1959) ونظرية Klein (1932) ونظرية Fordnam (1985) ، ونظرية ملاحظة الطفل الرضيع baby Observation لـ Bick. (1964)، مع ملاحظة أن بحثها يركز بعمق على ما يسمى بـ " الزوج الراعى" "Nursing Couple" الأم والطفل الرضيع ، وفى هذه الدراسة قامت Hall بملاحظة التفاعلات بين الأمهات والأطفال فى أثناء تشكيلهم الصلصال فى أعمال مشتركة.

أما الباحث Steen (1985-1990) فقد تعرف على التطورات في الأفكار حول نمو الطفل والتي كانت هي نتيجة لتلاقي نظرية التحليل النفسي مع علم نفس النمو. فالتكامل بين هذه الأفكار كان تحولاً رئيسياً في فهم طبيعة علاقة الأم بالطفل. وهذه التطورات انبثقت في الأبحاث التأثيرية لـ Bruner عام ١٩٨٦ وهو الأخصائي النفسي التنموي الذي أحضر بمنهج التاريخ الطبيعي إلى النمو الإنساني مما أعطى أهمية كبيرة للتفكير في علاقة الأم بالطفل.

إن نظرية التحليل النفسي لنمو الطفل اهتمت كثيراً بمحاور الجذب في الخبرات الأولى للطفل. واستطاع كل من) Stern 1985 و Ormer و Brzelton عام ١٩٩٠ وآخرون أن يُحددوا بعض التفاصيل التي لم تكن ملحوظة قبل ذلك. مُعرفين طبيعة العلاقة الأولى على أنها "مشاركة عمل". على سبيل المثال، إعادة تشغيل الفيديو وتحليل الإطار بإطار (Trevarthen وآخرون ١٩٨١) جعلت من لحظات التفاعل قابلة للتكرار وكشفت عن العلاقة الديناميكية بين الفردين المتفاعلين منذ البداية. فقد وُجِدَ أن الأطفال الصغار يبحثون دائماً عن المشاركة النشيطة. كما يبحثون على التبادلية exchanges بأنفسهم وليسوا مجرد مستجيبون فقط لإشارات من يرعونهم. فقد كان هناك دليل مؤثر وواضح على أن الأطفال الصغار يبحثون بجدية ونشاط عن المشاركة الاجتماعية واللعب بالإضافة إلى خبرات مفيدة جيدة. فما تم وصفه على أنه "اللحظات الحالية" now moments و"مؤثرات الحيوية" vitality affects بواسطة كل من Stern 1985 و Trevarthen 2001 ، وتم تسجيلها بالفيديو يُنظر إليه كونه هاماً جداً، في حين أن الدلالة في اكتساب الحوار ونمو الفكر تم فهمهما لاحقاً.

إن الدلائل للتعايش التبادلي المبكر في رؤيتها في الفيديو قد أثارت الاهتمام بملاحظة الطريقة التي يبدأ بها الأطفال الصغار ومن يرعونهم الاتصال بها مع بعضهم البعض، حتى في الساعات الأولى بعد الولادة، حيث تتكشف الأنماط الغريزية البسيطة للسلوك. تلك الأنماط تتطور من خلال الاعتماد على نغمة الصوت والوتيرة والتوقيت. إلى ما يُطلق عليها "الحوارات الأولية" Proto Conversations والتي حددتها Trevarthen (1981, 2001) في كثير من الثقافات والتي يعتبرها أنماط عامة. ويُلاحظ Sluckin عام ١٩٩٩ أنه حتى الألعاب الأولية الأكثر بساطة هي من الدلائل الأساسية على تطور اللغة. وهذا أيضاً يحمل الإمكانية لفهم وتسهيل جوانب أخرى للاتصال داخل الأسر وجوانب أخرى في حياة الكبار. فالأطفال لديهم كفاءة كبيرة ويلعبون دوراً أكثر نشاطاً مما هو مُحتمل قبل مشاركتهم التبادلية في علاقة ثنائية مع أمهاتهم أو من يرعونهم.

يؤكد Stern عام ١٩٨٥ على أن الذات المحورية للطفل "The infant's Core self" هي حاضرة منذ وقت الولادة أو قبل ذلك في أثناء الحمل. ولا يرى أية دلائل على

وجود حالة تلاحم بين الأم وطفلها الوليد الجديد. هذه الملاحظة تسير في خط متوافق مع اعتقاد (1959) Jung في وجود ذات أولية منذ لحظة الولادة أو أثناء الحمل: كلية محتملة والتي تحمل إمكانية الإدراك من خلال عملية التفرد في حياة الفرد. من المثير ملاحظة أن الباحث Fordham عام ١٩٨٥ قد توصل إلى فكرة "إنكار الذات الأصلية" بدون ظواهر وأن Trevarthen عام ٢٠٠١ أيضاً حدد تكوين دافع جوهري والذي يعني أن الطفل يُولد ومعه القدرة على الارتباط وتكوين العلاقات الاجتماعية بطرق تُزيد من النمو الصحي له. هذه هي كل الأفكار الممكن فهمها على أنها دلائل لنمط مثالي نموذجي في العمل.

في كتاب له تحت عنوان "كوكبة الأمومة" Motherhood Constellation عام ١٩٩٥، ينظر Stern إلى الطرق التي تعمل فيها المناهج العلاجية من نقاط بداية مختلفة ويُعرفها على أنها "أبواب الدخول" Ports of entry ، والتي استطاعت تحقيق نواتج جيدة بالنسبة للصعوبات في العلاقات المبكرة بين الأم والطفل الرضيع. ويُعتقد أنها تعمل على التبديل في الصور التي تعملها كل من الأم والطفل لبعضهما البعض لكن باتخاذ طرق مختلفة.

النظرية الارتباطية لـ Bowlby عام ١٩٨٨ كانت نظرية لها تأثير في تقديمها أداة لجمع الأدلة على التأثيرات طويلة الأجل للأساليب والصفات المختلفة للعلاقة والرعاية الأموية والأبوية. وباستخدام الفيديو تم فحص تقنيات الحوار الشخصي والاختبار النفسي وأنماط الرابطة أو الانتماء بين الأم والطفل. وتصنيفها في فئات، وتم تحليل النتائج عبر الشهور والسنين وتسجيلها، كما تمت مقارنة كل من الروابط بين ضعف التعلق ومشكلات الصحة العقلية للأم والشخصية الحادة واكتئاب ما بعد الولادة وأيضاً تعرض الطفل لأنواع مختلفة من سوء المعاملة، وأثر غياب الآباء والأمهات العاملات الذين يعملون فى وظائف أو العاملين بدور الرعاية والحضانات بوجه عام وأيضا تم فحصهم "Jams 2003 " .

هناك ثلاث خيوط للبحث في النمو المبكر للطفل تتجمع معاً عندما تتلقى الأفكار للأخصائيون النفسيون التنمويون والمعالجون أصحاب المنهج التحليل النفسي، وتتلقى تأييد من البحوث العصبية والبيوكيميائية وفى هذا الإطار تقدم الباحثة Gerhardt عام ٢٠٠٤

تفسيراً لتكامل الجوانب العصبية مع المتضمنات النفسية كما أنها تؤيد أدائية الباحث Schore عام ١٩٩٤ في تكامل جوانب نمو المخ والنمو النفسي والنمو الشعوري. فالتعرض للعنف والإهمال يُسبب ردود فعل بيوكيميائية والتي تؤثر بشكل مُعاكس في نمو المخ. في حين أن الرعاية الحسية المحبوبة التي يعايشها الطفل في شهور عمره الأولى تدفع وتُحفز على نمو "المخ الاجتماعي" "Social brain " له والذي يبدأ بعد الميلاد مباشرة والذي بدونه، فإن الاحتمالية لنمو القدرات الحسية التبادلية وقدرات أخرى، ممكن أن تفسد.

إن جوانب هذه النتائج ترتبط بشكل مباشر بالعلاج بالفنون، حيث ظهر أن الارتباطيات داخل المخ والتي تستقبل الإثارة من خلال نشاط ابتكاري، تحصل على مزيد من القوة وربما يحدث فيها إصلاح. إن إجمالي البحوث في العلاج بالفن قد دعمت وأعطت القوة للإعتقاد في كفاءة وفاعلية منهج يجمع بين الأمهات وأطفالهن معاً داخل عملية ابتكارية ما. وأعطيت اهتماماً خاصاً بالدلائل التي تُدعم فكرة أن عملية ممارسة الفن هي في الأساس نشاط إنساني.

إن أهمية الخبرة الأولى للطفل مع التركيز على قضايا الانتماء، كان لها تأثيراً في الخدمات العلاجية للأسرة والطفل، تلك الخدمات العلاجية التي تركز على السنوات الأولى من عمر الطفل. إن مشروعات حكومية مثل "شور ستارت Sure start " و "هوم ستارت Home start " وغيرها. قد أظهرت قيمة العمل الوقائي في تقوية العالم الداخلي والخارجي للأسرة ومصادرها، على سبيل المثال، منهج "سوليهول Solihull"، هو منهج عمل ناتج عن التعاون بين المعالجون النفسيون للطفل والزائرات الصحيات، وهو منهج يُقدم للمهنيون في مجال الصحة طرق عملية تساعد في دعم المصادر الخاصة للأسر.

خامساً : جماعة "شور ستارت Sure start Painting Group" للرسم والتلوين:

بدأت هذه الجماعة مع إحدى المشروعات الاستبيانية Pilot Project والتي أعطت الأمهات تغذية عكسية Positive Feedback إيجابية جداً. الأطفال أمتعوا أنفسهم والزائرات الصحيات المحليات تملكهن الحماس للغاية لتكوين مثل هذه الجماعات.

ومنذ ذلك الحين بدأت جماعات التلوين يتم تكوينها في كل مواقع مشروع "شور ستارت" في شمال مدينة كورنوول Cornwall بإنجلترا والتي غطت مناطق كثيرة حضرية وريفية والتي منها مناطق تعاني الحرمان من خدمات اجتماعية كثيرة.

ومن المتوقع كان لإدخال جماعات "الأم والطفل" للتلوين Mother and child painting group داخل بيئة جديدة إنما يعني حدوث تغيرات، والتي بعض منها تمثل نتائج لمشروع "شور ستارت". إن الوضع في الجو العام الحالي يهدف إلى تقوية الرابطة بين الأم والطفل ، ورعاية النمو لعلاقة صحية بينهما من خلال الأعمال الابتكارية. ومع ذلك كانت هناك "دلالات على الحاجة" "evidence of need" في المجتمع المحلي مطلوب تحقيقها قبل البداية. تلك الحاجة كانت تحددها الزائرات الصحيات والآباء الذين ثبت أنهم يفتقدون للخدمات المتخصصة لمعالجة اكتئاب ما بعد الولادة في هذه المناطق.

على ذلك تم التخطيط لتكوين جماعات محدودة الوقت ومغلقة للتلوين للسيدات اللاتي يُعانين حالة اكتئاب ما بعد الولادة – لكن لا يعيشن أزمة حادة – وأطفالهن. وتحديد وترشيح السيدات كان بواسطة الزائرات الصحيات ومهنيون صحيون آخرون. السيدات كلهن ذوات تشخيص مشترك لحالاتهن وهذا يدعو إلى بناء ديناميكية مختلفة في العمل. وبالنسبة للتقييم والمراجعة، استخدمت زائرة صحية مقياس أدنبره لقياس اكتئاب ما بعد الولادة "the Edinburgh Post Natal Depression Scale "EPND والتي استخدمته مع السيدات قبل وبعد المشاركة في هذه الجماعة. المحصلة على المقياس فما فوق يُنظر إليها بصفة عامة على أنها النقطة التي يُنصح فيها بمزيد من التدخل، وكانت هذه النقطة هي المعيار بالنسبة للمعالجين للمشاركة.

إن الطبيعة الأكثر احتواءاً لهذه الجماعة المغلقة أثبتت فائدتها بالنسبة لتلك المجموعة من السيدات وأطفالهن. فهن أردن المساعدة لأنهن يُدركن أن شرخ أو أكثر قد أصاب أسرهن وحياتهن، وأملهن في إيجاد طرق جديدة يتمتعن بواسطتها مع أطفالهن، جعلهن أكثر جرأة على الانضمام لمثل هذه الجماعة. رغم أن وقت الحوار الهام أُعيد الحديث عنه مرة أخرى في جماعات التلوين في مشروع "شور ستارت"، إلا أننا شعرنا أن ما زالت هناك قضايا غير مُعبر عنها صوتاً وربما من الصعب الحديث عنها، ما زالت

الأعمال الفنية تحملها، والتي مُحتمل وجودها صامتة في لحظة مشاهدة جميع المشاركين لرسومات بعضهم البعض، وجهاً لوجه مع الصور وليس الأشخاص. الوقت الذي يُقدر أنه في قلب كل صورة هناك شيء غامض يعمل على تذكرة الفنان بأن هناك الكثير والكثير جداً من لحظات الحياة غير تلك اللحظة المباشرة التي يعيشها.

اكتئاب ما بعد الولادة Postnatal depression:

المعلومات عن اكتئاب ما بعد الولادة متاحة أمامنا الآن (Shaw 2001; Mind 2000). إن الأثر الظاهر لحالة اكتئاب ما بعد الولادة يتمثل في عدم القدرة على التوافق مع تغير الحياة الضاغط الذي ينتج عن الحمل والولادة. وهذه عمليات تحمل مخاطرة في حد ذاتها، ومهما كانت النتيجة فإن حياة المرأة لن تعود على سابق حالها أبداً. والدخول في هذا النطاق المجهول للمرأة والذي هو مُكبل بالفعل بقضايا معلقة لم تجد حلاً لها، ممكن أن يُسبب حرج كبير بالنسبة لها ولأسرتها وممكن أن يمثل خطورة على نمو طفلها. فالضغوط الاجتماعية الاقتصادية – بشكل غير مفهوم – ظهر أنها تزيد من حدة المشكلات بالتأكيد.

والسيدات اللاتي أتين إلى هذه الجماعة يضعن فكرهن هذه الحالة. فجميعهن يملكن شخصيات متفردة لكن القصص الشخصية لهن بينها موضوع مشترك هو الصدمة في جانب من جوانب حياتهن. تلك الصدمة يشعرن أنهن بلا قوة أمامها. فهناك إحساس بالنسبة لهن في ذلك الوقت أن المستقبل أغلقت أبوابه أمامهن. ومن المعرف أن تلك الحالة ممكن استمرارها لعدة سنوات بدون علاج. ومع ذلك لا يكون الرأي الطبي في تشخيص الحالة سلبياً بصورة كلية، لأن البحوث تشير إلى أنه على الرغم من استمرار هذه الحالة، إلا أن اكتئاب ما بعد الولادة ممكن أن يعوق بناء العلاقة بين الأم وطفلها الرضيع، وحتى التدخلات البسيطة نسبياً ممكن أن تصنع فرق في جودة هذه العلاقة بسبب السرعة التي بها يستجيب الطفل الرضيع لسلوك الحنان والاحتواء من جانب أمه. وباستثناء الحالات الخطيرة لفشل الرابطة بين الأم والطفل – والتي نادراً ما تحدث – فإن منحنى ضعف هذه الرابطة ممكن إيقافه كلما أصبحت الأم أكثر حسية تجاه طفلها الرضيع، أو لاحتياجاته وأمنياته وشخصيته الفردية.

سادساً : الرسمة النموذجية لجماعة Sure start للتلوين

vignette of a typical Sure Start Painting Group :

في هذه الجماعة يتجمع عدد من السيدات وأطفالهن الصغار داخل غرفة كبيرة مفروش على أرضيتها لوحة كبيرة من البوليثين الأزرق blue Polythene ويجلسوا في شكل شبه دائري ثم يدخلوا جميعاً في ممارسة التلوين. وترتفع وتنخفض أصواتهم وهم يُلونون الصور بعد رسمها. أغلب الوقت تبقى السيدات في مكانها في حين الأطفال يمارسون هذا النشاط هنا وهناك من حولهن. ولحظات المشاركة المقربة بين الأم والطفل تتبدل مع الوقت عندما تنفتح المسافة بينهما، ويشخبط ويخطط الطفل فيعود مرة أخرى إلى النظر إلى أمه، ويقترب من غيره من الأطفال والأمهات ويحدث تبادل حسي بين الجميع. وفي بعض الأحيان تمر لحظة هادئة للمشاهدة أو الرسم منفرداً قبل العودة مرة أخرى للجماعة ككل. وأحياناً تترك إحدى الأمهات مكان الرسم لقضاء بعض احتياجات طفلها في مكان مخصص لذلك. وموميض كاميرا التصوير لبعض اللحظات يثير البعض من المشاركين. وبالتدريج يتم نقل الرسومات قبل جفافها إلى مكان آخر داخل الغرفة حيث تُترك لتجف بعيداً دون الاقتراب منها. وتدريجياً يتغير مظهر الغرفة كلها ويزداد بريقاً ويصبح مليء بالألوان بمرور الوقت. عندما ينتهي وقت الرسم والتلوين ينتقل نشاط الجماعة من وسط الغرفة إلى نهايتها لأخذ قسط من الراحة، فتجلس السيدات على مقاعد مريحة يتبادلن أطراف الحوار، والأطفال يلعبون من حولهم يقطعون أحاديثهن. وعندما يحين وقت النهاية، تقل الطاقات، والوجوه ربما تساقطت عليها بقع لونية، والأيدي مُتسخة بالألوان، فينصرف الجميع بعد اغتسال وجوههم وأياديهم. وفي اليوم التالي تُفترش الرسومات الناتجة على الأرض ليشاهدها الجميع في وقت واحد ويُبدوا التعليق عليها. وفي النهاية يتم حفظ هذه الرسومات داخل ملفات وأخذها إلى المنزل. وفي النهاية يتصافح الجميع ويودعوا بعضهم البعض وتتفرق الجماعة. وتُعاد غرفة العمل إلى ما كانت عليه انتظاراً للجلسة التالية.

سابعاً : أمثلة علاجية Clinical examples

1- "Holly" and "Jack" :

في الغالب يُفترض أن الأطفال الرُضع في سن صغيرة جداً لا تسمح لهم بالاستفادة من جماعة التلوين إلى درجة أن الأمهات في البداية اندهشن قائلات هل هذا حقيقي فعلاً؟ إن خبرة الأم الشابة والطفل الرضيع تشرح لنا المشاركة منذ الأيام الأولى في علاقتهما معاً.

"Holly" تبلغ من العمر ١٦ سنة وتعيش مع أسرتها في منزل ضيق مزدحم. عندما تم تقديمها للجماعة مع طفلها Jack وكان يبلغ عندئذٍ ٦ أسابيع. بعض أقاربها المقربون كانوا يتولوا رعاية Jack وأصبحت هي منسحبة إلى درجة أنها من النادر ما كانت حتى تلمسه، كما أن الزائرة الصحية التي تم ترشيحها كانت مندهشة لسلبيتها هذه. فقبل الولادة كانت امرأة واثقة تملك الإصرار وكانت سعيدة أنها حامل. في أثناء الأسبوع الأول لها في الجماعة ظهر أنها متجمدة المشاعر ولا تتواصل مع أي فرد داخل الجماعة، لكنها كانت تراقب الموقف جيداً وطفلها وحاضرة لتلبية احتياجاته في هدوء. وفي الجلسة التالية نام طفلها واقترحا عليها أن ترسم بمفردها، وهذا أعجبها كثيراً، وخلال الأسابيع التالية رسمت كثير من الصور الملونة وأخذتها إلى منزلها. وخوفاً من أن يستيقظ طفلها وحتى ترسم ابتكرت طريقة بواسطتها تربط بيد واحدة عليه في منامته. وباليد الأخرى تمسك الفرشاة وترسم. الألوان الناصعة تناثرت على ورقة الرسم وفتح طفلها عينيه يُحملق إليها وهو نائم، وكانت Holly تأتي إلى الجماعة في مواعيدها بانتظام، وكانت طبيعتها الحيوية والناضرة إنما تتحدث عن نفسها، فأصبحت عضوة نشيطة في الجماعة وكونت صداقات مع السيدات في الجماعة وكانت تداعب الأطفال في سن تعلم المشي من الموجودين في الجماعة والأكبر سناً منهم. أما طفلها Jack كان طفل لطيف وذو حسية عالية والذي يبدو عليه الاستمتاع بوجوده بين هذا العدد من الأطفال الصغار والنساء. وعندما بلغ Jack أربعة أشهر، قررت أمه أنه كبر بشكل يكفي لأن يرسم هو الآخر، فجلست على الأرض ووضعت أمامه ورقة الرسم تعاونه بحنان الأم ودفئها وتمسك أصابعه وتحركها ماسكاً فرشاة فيها لون ما فيرسم عشوائياً خطوط لا إرادية مُبعثرة والتي أعجبتها كأول رسم له. وبنهاية الأسبوع العشرين من عمره عادت الثقة إلى Holly وعادت لترتبط

بحياتها الاجتماعية السابقة على الولادة ولترتبط بأمها وأبيها وطفلها إلى حياة طبيعية كاملة إلى حدٍ كبير.

2- "Hannah" and "Leo" :

"Hannah" هي شخصية اجتماعية بسيطة تخفي في داخلها أحاسيس معقدة حول الأطفال الرُضع والاعتمادية، وذلك نتيجة لطفولتها التي كانت مليئة بالمتاعب. أصيبت بحالة نفسية دخلت على إثرها المستشفى للعلاج بعد ميلاد طفلها الأول، وزاد تناقضها حول حملها الثاني عندما توقعت بالكشف الطبي أن المولود سيكون ولد. وفي حين كان الطفلين يلقيان رعاية جيدة، وكانت رسومات Hannah الزخرفية لها أسلوب مميز، كانت تتناقل بلا هوية بين الرضاعة الطبيعية والتغذية بالببرونة وبين أحاسيسها الواضحة بطرق متواترة. مثل عادتها ترك طفلها Leo وشأنه دون اهتمام وتتركه على أرضية الغرفة الصلبة الباردة لتذهب إلى مكان آخر في الغرفة. وبمرور الوقت وجدت Hannah أن الجماعة متوافقة، وسعدت كثيراً بالصحبة فيها واستمتعت بالحديث مع أمهات أخريات اللاتي شعرت معهن بعلاقة مقربة. أيضاً وثقت في الزائرة الصحية التابعة لمشروع "شور ستارت" Sure Start Painting Group في زياراتها المنزلية لها مما دفعها إلى الحديث عن اهتماماتها الشخصية بشكل مفتوح. في جلسات الجماعة كان طفلها Leo ذو طبيعة هادئة ومرحة وأصبح أكثر الأطفال الموجودين شهرة وتم الاحتفاء به مع أول زحف له على أرضية الغرفة، واستجاب بسعادة لمنهج المعاملة الواقعية الحنونة من أمه بينما كانت تمسك بيده أثناء الرسم لها وله. لم تتحدث إليه كثيراً لكن مع نموه بدأت تجربة طرق أخرى لاحتوائه، إحداها كانت تضعه على رجليها وهي جالسة وتعطيه فرشاة الرسم ليحركها على ورق الرسم، بينما هي ترسم أيضاً، وتدريجياً، في كل مرة تُرى مع طفلها، يتضح أن الطفل Leo بدأت شخصيته الفردية تتكون أمام عين أمه. في الأسابيع الأخيرة للجماعة، ابتكرت Hannah طريقة جديدة مرحة للتلوين مع ابنها أولاً ثم لاحقاً مع بقية الأطفال في الجماعة، حيث كانت تضعه بين رجليها وهي جالسة تأرجحه بيديها وأمامه ورقة رسم عليها كمية من الألوان يُحرك عليها Leo الفرشاة فقط، وأطلقت على هذه الطريقة اسم "رسومات الأرجوحة" Swing Paintings. ومع تغيير الألوان

ونمط التأرجح، تتحقق نتائج مثيرة، والتي تلقى إعجاباً كبيراً ممن هم حولها. وظهر أن الطفل Leo وأمه استمتعا كثيراً معاً بهذه الطريقة المثيرة. التقطت لهما صورة فوتوغرافية في ذلك الوقت وهما جالسان على أرضية الغرفة تميل عليه أمه بجسمها. وفي حوار المتابعة معها. قالت Hannah أنها الآن أصبحت تحب Leo وأنها أصبحت أكثر ثقة في المستقبل لها ولطفليها. ومع كل ذلك، يجب أن ندرك أن مثل هذا التقدم ما هو إلا مجرد بداية. و Hannah نفسها تدرك جيداً أنه ليس من السهل دائماً بالنسبة لها أن تنال المساعدة التي تحتاجها لمقاومة حالة التقلب المزاجي التي تشعر بها أحياناً. إننا نأسف كثيراً على أنه من غير المحتمل أن العلاج النفسي طويل الأجل – والذي ننصح به مع مثل هذه الحالات – ألا يكون متاحاً بالنسبة لـ Hannah ومن هن في مثل حالتها أو ما شابه، في مثل هذه المنطقة التي تعيش فيها.

3-"Faye" and "Robin":

"Robin" ولد كان يبلغ من العمر عامين عندما انضمت أمه إلى هذه الجماعة. على الرغم أنه تم الاكتشاف بعد فترة وجيزة أنه طفل رضيع نشيط جداً وخفيف الحركة، إلا أن أمه أصرت على حمله في منامة أطفال baby Seat، والببرونة أو البزازة في فمه. كانت Faye قلقة جداً من عدم تركها انطباع جيد عنها وعن طفلها. دائماً ما تجد على وجهها ابتسامة عريضة، ودائماً ما تقول أن كل شيء في حياتها يسير بشكل رائع، وعندما أصبح واضحاً – حتى بالنسبة لها – أن ما تقوله غير مقنع. تحولت إلى سلوك مهووس ومُسلي بشكل مُفرح وصاخب. فكان من المؤلم الاستماع إلى ذلك ومشاهدتها تكافح للمحافظة عليه، مما جعل من الصعب بالنسبة لبقية الجماعة المشاركة في مثل هذه الأحاسيس الأكثر غرابة. في البداية لم يكن الوقت المخصص للرسم سهلاً أيضاً بالنسبة لها، حيث توهمت أنها وطفلها سوف يكونا أفضل ثنائي "أم وطفل" في الجماعة، وفي محاولات توافقها، حاولت أن تنظم طفلها Robin والمواد الفنية داخل فعل متماسك Cohesive action . وأثبتت توقعاتها أنها غير واقعية، أما طفلها فانضم لبرهة من الوقت في فعلها هذا، لكنه عندما وجد أطفالاً آخرين معه، شعر بنوع من الحرية فأخذ في الانطلاق معهم يمرحون. وتحولت متابعة Faye إلى مباراة خاسرة لن تكسبها أبداً. ومع

إسداء النصيحة لها اقتنصت الفرصة في الوقت والمساحة وذهبت ترسم بمفردها. وبعد ذلك عندما وجدت المتعة فى هذا النشاط، وانضم إليها طفلها الذي ترك الأطفال وعاد إلى أمه يشاهدها فيما تفعل وبقي بجوارها، وبعد ذلك قضيا معاً أوقات طويلة في تناغم واضح بينهما، واستمتعا كثيراً بالرسم بجوار بعضهما على ورقتين منفصلتين، حيث ممكن أن نرى حباً مشتركاً بينهما للألوان وورق الرسم. وهذه كانت البداية للتغير الذي سمح لها الاسترخاء من زعمها الواهم بالاكتمال والذي كشفت بعد ذلك أنه سلوك أخذته عن أمها في طفولتها، وأدركت في النهاية أنها لا تستطيع إقناع الناس من حولها أنها "الأم السوبر"، وقالت لا ينبغي أن أبقى كثيراً داخل هذه الصورة البراقة الخادعة.

4- "Sarah" and "Rosie" :

كانت Rosie تبلغ من العمر ثلاث سنوات تقريباً عندما جاءت مع أمها إلى الجماعة. Sarah امرأة هادئة تماماً تعيش حالة عادية لكنها حزينة و تبدو على وجهات علامات ندم وأسف كثيرة، وهى منفصلة عن زوجها واختارت أن تعيش بعيداً عن أسرتها وكانت تحصل على معونة معيشة من الإدارة الاجتماعية المحلية. في البداية شعرت بالخجل. لكن سرعان ما تعودت على أعضاء الجماعة. كانت امرأة صدوقة، تهتم بمن حولها وكانت تداعب كل الأطفال. لم تواجه صعوبة في إشراك طفلتها في استخدام المواد الفنية، لكنها شعرت بعد فترة وجيزة أنها تحت سيطرة متطلبات طفلتها وطاقتها المتفجرة وحتى طفلتها نفسها أظهرت جانباً غاشماً فيها، حيث وجدت الطفلة أن أمها تهتم كثيراً ممن حولها من أطفال وصعب أن تتحمل هي ذلك، كما أغضبها أن أمها تجلس بمفردها فترة من الوقت. ومن ذلك عرفنا أن هذا الأمر يسبب مشكلات في المنزل أيضاً عندما علمنا أن جزء من الدخل الذي تعيش عليه Sarah وابنتها يأتي من عملها جليسة أطفال يوم أو أكثر أسبوعياً. فالأم احتاجت وقت كافي لتعريف أحاسيسها لكن طفلتها احتاجت مزيد من التأكيد على أن أمها لا تتجنبها.

مثل هذه الدراما ربما نجدها نمط يتكرر في الجماعة كل أسبوع. نعني كل جلسة للجماعة يُتاح بعض الوقت لـ Sarah لترسم صورة والتي نشجعها عليها هروباً من هجوم طفلتها عليها. وفي نفس الوقت تبقى طفلتها تراقبها وترسم هي الأخرى وتلعب مع الأطفال

والكبار الموجودين في الجماعة حيث أصبحت شريك جزئي في كثر منا التفاعلات الإيجابية مع مختلف الأعمار في الجماعة، وهذا ما أدركته أمها جيداً، لكن ذلك لا يسير بسلاسة دائماً. لقد كانت أحاسيس Sarah الاعتمادية الخاصة تظهر وتتطور ببطء، لكنها بالتدريج بدأت في الوصول إلى فكرة مكتملة حول ما الذي تريده من الحياة، وأن الوقت الذي تأتي فيه إلى الجماعة أخذ صفة المرح، خاصة أنها وطفلتها ابتكرتا في ذلك تقنية خاصة أعجبت الجميع وأعطتهما متعة مشتركة. وفي هذه الطريقة تقوم Sarah بدهان ظهر حذاء طفلتها بالألوان وترفعها بيدها ثم تضعها بقدميها على ورق الرسم فيطبع عليه شكل ظهر الحذاء وهكذا كانت كثيراً ما تغير حذائها، وتغيير اللون أيضاً حتى يصلا إلى شكل يُرضيهما. وأطلقت Sarah على هذه التقنية اسم "الأقدام الراقصة" dancing feet، وطلبت منها أن تقص هذه الطبعات وتأخذها إلى المنزل وتعلقها حتى تعطي أثراً طيباً وذكرى طيبة لها ولابنتها. حقاً إنها تقنية غريبة بقدر ما هي جميلة.

مـلـخص

في هذا البحث تتبعنا اهتمام Penelope Hall في منهج العلاج بالفن في العمل مع الأمهات وأطفالهن الصغار والذي استمر على مدى عقدين كاملين. إنه منهج يحكي قصة كيف أن ما يظهر في البداية ينبع أساساً من أحاسيس بصيرة حول أهمية علاقة الأم بالطفل والرغبة في استكشاف هذه العلاقة من خلال كيفية غير لفظية مثل مجال رسم الصور، مما ساعدها على جمع الأسس النظرية التي تكشف تدريجياً عن عمق وأسرار الأفكار فيما وراء السطح البسيط الشكل لهذه العلاقة.

إن متضمنات البحوث من علم النفس التنموي والعلاجات المبنية على التحليل النفسي وعلوم الأعصاب والكيمياء الحيوية، إنما تستمر في متابعة دراستها متعددة الأبعاد حول بدايات الكائن البشري. ذلك ممكن أن نراه الآن يمتد إلى داخل مجالات ظهر منذ فترة قصيرة أنها لا ترتبط بنطاقات البحث، لكن البحوث تناولتها لبحث ما إذا كانت لها علاقة أم لا. هناك ثلاثة من الكُتاب تنصح بقراءة أعمال لهم مثل Hobson "مهد الفكر" The Cradle of Thought عام ٢٠٠٤ والذي يتحدث فيه عن نمو القدرة على التفكير والوصول إلى نظرية للعقل. و "ما قبل تاريخ الفكر" The Pre- History of Mind لـ Mithen عام ١٩٩٩ والذي يبحث في مفهوم الانسيابية المعرفية و "الإحساس بما يحدث" The Feeling of what Happens لـ Damasio عام ٢٠٠٠، والذي يبحث في

أصل الشعور. إن دلالة أفكار هؤلاء الباحثين قد تركت انطباعاً قوياً لدىّ Penelope Hall والذي أثر بالتأكيد في منهجها العملي.

Conclusion

In this research we have traced Penelop Hall interest in an art therapy approach to working with mothers and young children which has stretched over two decades. It tells the story of how what in the beginning stemmed from an intuitive feeling about the importance of the mother-child relationship and the wish to explore it through a primarily non-verbal modality of images, gathered theoretical underpinning which gradually revealed the depth and profundity of the ideas beneath the surface of its simple form.

The implications of research from developmental psychology, psychoanalytically-orientaterd therapies, biochemistry and neurobiology continue to pursue their multidimensional study of the beginnings of human beings. This can now be seen to extend into domains that not long ago appeared to be unrelated areas of inquiry. Three writers Hall would recommend and who have taken Hall forward are Hobson, *The Cradle of Thought* (2004), with ideas about the development of the ability to think and to arrive at a theory of mind; Mithen, *The pre-History of the Mind* (1999), which explores the concept of cognitive fluidity; and Damasio, *The Feeling of What Happens* (2000), which is concerned with the origin of consciousness. The significance of their ideas has made an impression on Hall which will influence Hall work in the future.

References

1- Bick, E. (1964) Notes on infant observation in psychoanalytic training, *International Journal of Psycho-Analysis*, 45: 558-66.

2- Biemans, H. (1990) Video Home Training: theory, method and organization of SPIN, in J. Kool (ed.) *Innovative Institutions*. Ryswijk, Netherlands: Ministry of Welfare, Health and Culture.

3- Bowlby, J. (1988) *A Secure Base: Clinical Applications of Attachment theory*. London: routledge.

4- Brazelton, T.B. and Cramer, B.G, (1990) *The Earliest Relationship: Parents, Infants and the Drama of Early Attachment*. Cambridge, MA: Perseus Books.

5- Bruner, J.S. (1986) *Actual Minds, Passible Worlds*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

6- Cornen, v. and Lang, P. (1994) Language and action: Wittgenstein and Dewey in the practice of therapy and consultation, *Human systems: the Journal of Systemic Consultation and Management*,5: 43.

7- Damasio, A. (2000) *The Feeling of What Happens: Body, Emotion and the Making of Consciousness*. London: Vintage.

8- Dissanyake, E. (2000) *Art and Intimacy: How the Arts Began*. Seattle, WA: University of Washington Press.

9- Douglas, H. (2002) *Solihull Resource Pack*. Unpublished.

10- Fordham, M. (1985) *Explorations into the Self*. London: Academic Press.

11- Foulkes, S.H. (1964) *Therapeutic Group Analysis*. London: Karnac.

12- Fraiberg, S. (1980) *Clinical Studies in Infant Mental-Helath: The First Year of Life*. London: Tavistock.

13- Freud, S. (1912) *The Dynamics of Transference*, Standard Edition, vol. 12. London: Hogarth.

14- Gerhardt, S. (2004) *Why Love Matters: How Affection Shapes a Baby's Brain*. Hove: Brunner Routledge.

15- Hall, P. (1991) Exploring the mother-child relationship: an art therapy workshop, unpublished art therapy MA dissertation, University of Hertfordshire, St. Albans.
16- Hall, P. (1977) *Phantastic Families: Art Therapy and Community Development*. Champernowne Trust Summer Course Year Book, private publication.
17- Hobson, P. (2004) *The Cradle of Thought: Exploring the Origins of Thinking*. London: Pan Macmillan.
18- Hosea, H. (2003) The Brush's Footmarks: parents and infants paint together in a small Community art therapy group, unpublished art psychotherapy MA dissertation, Goldsmiths College, University of London.
19- Hosea, H. (2006) "The Brush's Footmarks": Parents and infants paint together in a small Ccommunity art therapy group, *The International Journal of Art Therapy: Inscape* 11(2): 69-79.
20- James, O. (2003) *They F*** You Up: Ho to Survive Family Life*. London: Bloomsbury.
21- Jung, C.G. (1959) *The Archetypes and the Collective Unconscious*, *Collected Works*, 9 Part 1. London: Routledge.
22- Klein, M. (1932) *The Psychoanalysis of Children*. London: Hogarth.
23- Mind (2006) Out of the blue: understanding postnatal depression: Mind week theme 2006, motherhood and depression, www.mind.org.uk.
24- Mithen, S. (1999) *The Prehistory of the Mind: The Cognitive Origins of Art and Science*. London: Thames & Hudson.
25- Murray, L. (2005) *The Social Baby*. London CP Publishing.
26- Pearce, B. and Cronen, V. (1980) Communication, Action and Meaning: The Creation of Social Realities, New York: Praeger.
27- Robson, K.M. and Kumar, R. (1980) Delayed onset of maternal affection, *British Journal of Psychology*, 136: 347-53.
28- Schore, A. (1994) *Affect Regulation and the Origin of the Self*. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum.

29- Shaw, F. (2001) *Out of Me: The Story of a Postnatal Breakdown*. London: Virago,

30- Sluckin, A. (1999) Humans are conversational from birth: systemic therapy, developmental psychology and the artistic metaphor, *Human Systems: The Journal of Systemic Consultation and Management*, 10(1).

31- Stern, D. (1985) *The Interpersonal World of the Infant: A View from Psychoanalysis and Developmental Psychology*. London: Karnac.

32- Stern, D. (1990) Lecture given at the Middlesex Hospital, London.

33- Stern, D. (1995) *The Motherhood Constellation: a Unified View of Parent-Infant Psychotherapy*. New York: Basic Books.

34- Trevarthen, C. (2001) Intrinsic motives for companionship in understanding: their origin, development and significance for infant mental health, *Infant Mental Health Journal*, 22(1): 2.

35- Trevarthen, C., Murray, L. and Hubley, P. (1981) Psychology of Infants, in J. Davis and J. Dobbing (eds) *Scientific Foundation of Clinical Paediatrics*. London: Heimemann Medical Books.

36- Von Franz, M.L. (1970) *The Interpretation of Fairy Tales*. Dallas, TX: Spring.

37- Winnicott, D.W. (1971) *Playing and Reality*. Harmondsworth: Penguin.